اثر تعيين المنهج والموضوع في العلوم للرقي ورفع الخصومات

الباحث

الشيخ محمد العلي

عضو هيئة علمية

اكاديمية الحكمة العقلية – قم - ايران

يعيش العالم اليوم في حالة سباق محموم لاكتساب أكبر قدر ممكن من المعرفة الدقيقة المستمدة من العلوم التي تقود إلى التقدم والرقي والازدهار،فالمعرفة العلمية-بلا شك-تمثل مفتاحاً للنجاح والتطور نحو الأفضل،حيث تعتبر المعرفة ضرورية للإنسان،لأن معرفة الحقائق تمثل فصل وجوده لجهة ان الانسان نحو موجود يتميز عن سائر الموجودات بفصل ناطقيته وقابلية تفكيره وإمكانية إدراك حقائق الموجودات،كما أن المعرفة تساعده على فهم المسائل والقضايا التي تواجهه في حياته العملية فضلا عن حياته العلمية التي ينبغي ان يكون عليها،إذ بفضل المعلومات التي يحصل عليها الإنسان يستطيع أن يتعلم كيف يتخطى العقبات التي تحول دون بلوغه الأهداف المنشودة،ويعرف كيف يسطر الاستراتيجيات التي تتيح له القدرة على تدارك الأخطاء واتخاذ إجراءات جديدة تمكنه من تحقيق أمانيه في الحياة على جميع أصعدتها وأنحاءها،وهو يستطيع غير ذلك أن يحقق ما يرغب فيه مستعيناً بذكائه ومعرفته للكشف على العديد من الظواهر التي يجهلها.

فالمعرفة امر لا يعز على احد ادراك اهميتها ومشكاة العلملا يخفى على عين بصيرتها الا ان ثمة مشاكل قد تعترض طريق الطالبين فتحول دون الوصول الى مقاصد الدارسين، ومشاكل العلوم شتى الا اني رأيت ان من اولى المسائل اهتماما لكونها اكثرها تأثيرا في تمايز العلوم وانضباطها وتسيير الوصول الى حقائقها تعيينَ موضوع العلم وتحديد مسائله وتعيين منهج دراسته لِما للاول من اثر تحديد ما يلزم بحثه في العلم ولِما للثاني من اثر تحديد طبيعة المسائل اللازم توفرها في العلم وطرد ما كان خارج عنه ولما للثالث من دور في تعيين طبيعة

تقصي حقائق العلم والوصول الى نتائجها، فقد كثر في حال من لم يتعرف طبائع العلوم و الوقوف على أسرارهاأن يُدخل ما ليس في العلم في العلم بان يبحث ما لم يكن له ربط بموضوعه ولا يعد من مجموع مسائله او يبحث مسائل العلم بنحو منهج لا يقود الى نتيجة من سنخ نتيجةِ مبحوثِهومنه كثر الزيف وطال عَلَمُ الجهل في ميادين العلم وتبادلت التهم والافتراء،وما ذلك إلا لغياب موازين العلم ومنها ما ذكرنا، فانظر مثلا لما وقع في سالف الزمان حين تصدى أهل العلم والمعرفة أمثال جاليلوبان[١] أوضح نظره العلمي فيكروية الأرض وحركة الأفلاك وقوانينهافقام عليهأهل زمانه ممن اتبع اهواءه فحكموا بكفره ولزوم معاقبته بحجة أن ما ذكره كان مخالفا لظاهر ما ورثوه من كتابهم المقدس وقد غاب عن هؤلاء الجهال ان مثل هذه المسائل لا تفهم بمجرد كلمات اذ من الممكن ان تكون قد دست في الكتاب او قد قالها المسيح عيسى ابن مريم لكن لم يكن نظره لبيان طبيعة الارض من حيث التكوين او لنفرض انه قالها لاجل البيان لكن من الممكن اننا قد فهمنا منها ما لم يكن يقصد وغيرها من الاحتمالات الاخرى التي لا يسمح المحل لذكرها كلها قد ادت الى ان اخذَ مثل هذه المسالة من مثل هذا المنهج لا يورث علما اصلا بحقيقة ما عليه الارض ولا يكون ما يؤخذ منها الا رجما بالغيب وتكهنا من عند أنفسنا، فالمنهج الصحيح لمثل هذه المسألة ان تبحث ضمن العلم الباحث لموضوعها والمعتمد على منهج الرصد لمتابعة احكام مثل هذه المسائل فلما غاب هذا الميزان كُفِر بعض افذاذ اهل العلم وراحوا ضحية جهل غيرهم وحُرمت من افكارهم حضارة اهل زمانهم وللاسف قد قال مثل قولهم ممن لا اسميهم من عالم اسلامنا فحكموا في يومنا هذا بتسطح الارض لا بكرويتها لمكان قوله تعالى "وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ"[٢]وقولهتعالى: " وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ"[٣] فانظر ماذا تحكم؟ وكيف تعالج الامر؟ وهناك المئات من الامثلة في المقام يعز عليّ اتعاب قارئها[٤].

فعلى أية حال ما أردت الرّومَإليهوقصد التأكيد عليه هو بيان أهمية مسألة تعيين الموضوعات ورسم ملامح المسائل فيها وتحديد مناهجها من الامور التي في غاية الاهمية ودليل اهميتها انه على اساسها قسمت العلوم وعين مسائلها وعلى اساسها قسمت مدارس المعرفة بين عقلي وتجريبي وأخباري وكلامي وصوفي وغيرها.

فالكلام يقع في مراحلثلاثة:

الأولى: بيان موضوع العلم وتمايز العلوم.

الثانية: بيان أن مسائل العلم ينبغي أن تعتني بدراسة ما يعرض أولاوبالذات لموضوع ذلك العلم ولا تعتني بدراسة مطلق ما يعرض الموضوع.

الثالثة: بيان ماينا سب موضوعات العلوم من منهج للتعرف على أحكام ما نسبت إليه.

المرحلة الأولى:فيبيان موضوع العلم وأثره في تمايز العلوم.

لايخفى أنناإذا وضعنا اليد على مجموعة من المسائل لدراستها يلزمنا أولاإطلاق اسم جامع لتسميتها ومحددا لطبيعة هويتها وهو ما يسمى باسم العلم على ما تعارفت عليه الفنون بعادتها كعلم الطب وعلم الفقه وعلم الفلك، وهذا مما لا ريب في ضرورته واتفاق العقلاء على حسنه، إلا أن هناك مكمنُ سؤال حاصل هو أن تسمية مجموع مسائل ما بإسم علم ما وضبطها على أنها علم واحد بعينه يقع تحت أي ضابطة يمكن اعتمادها كملاك في إطلاق اسم العلم وتسميته؟

لايخفى أن الجواب لا يخلو من احد أمور أربعة:

١- إماأن يكون بملاك موضوع مسائله الجامع لشتاتها وترامي أطرافها.

٢- وإماأن يكون بملاك محمولاتها.

٣- أوأن يكون بملاك غاية ما يرجى من دراسة مجموع تلك المسائل.

٤- أو يكون بملاك طبيعة ما يتبع من منهج في تحقيقها.

والأمور الثلاثة الأخيرة منها كلها مردودة بالنحو الآتي:

أما الثانية فلا يخفى أن محمولات العلم الواحد متعددةٌ لا يمكن اعتمادها جامعا في وحدوية المسائل المتعددة بل تعدد المسائل إنما كان بتعدد المحمولات غالبا وما به التعدد والاختلاف لا يصح جعله جامعا وما به الاتحاد.

وأما الثالثة فيرد عليه انه من قبيل اخذ ما بالعرض مكان ما بالذات إذ الغاية والغرض المترتبة على مجموع المسائل عرض يعرض جميع مسائل العلم، ومن المعلوم أن ما بالعرض

يرجع إلى ما بالذات وان كل عرضي معلل فهنا نسأل من هو الذاتي المسبب لوحدوية الغاية في هذه المسائل المتفرقة وما هي العلة الواحدة المسببة لها؟

وحاصل الجواب لايمكن فرض غير الموضوع كذات يلزمها وحدة الغاية في جميع مسائلها أو كعلة سببت وحدة الغاية فيها،وذلك لما قدمناه من إبطال الفرض الأول ولما سيأتي من إبطال الأمر الرابع[٥].

وأما الرابعةفإضافةً إلى عدم وجود قائل ب هان المنهج الواحد قد يكون مشتركا بين أكثر من علم واحد وعليه لا يصح جعله مائزا لعلم خاص بعينه.

فمن جميع ما قدمناه يثبت أن الموضوع أمر يتحصل به وحدوية المسائل المبحوث عنها وبه تتمايز العلوم عن بعضها[٦].

بعد أن تقرر ما ذكرناه من ملاك تمايز العلوم تصل النوبة إلى سؤال آخر حاصله هل اختلاف الموضوعات في العلوم على نَسَقٍ واحد أم على نُسُقٍ مختلفة؟

حاصل جوابه أن اختلاف الموضوعات بين العلوم على أنحاء عدة؛ إما اختلاف في ذات الموضوعات كاختلاف موضوع علم الرياضيات عن موضوع علم الطبيعياتفالأول موضوعه العدد والثاني موضوعه الجسم من حيث قابليته للحركة والسكون وهما مختلفان ذاتا،أو اختلاف في أحوال الموضوع الواحد كاختلاف موضوع علم النحو عن موضوع علم الصرف بكون الأول موضوعه الكلمة من حيث حركةآخره (الإعراب والبناء) وكون الثاني موضوعه الكلمة من حيث حركة ما قبل آخره، فلم يكن تباينا في موضوعهما وإنما كان الاختلاف بين موضوعي العلمين في حال أمر واحد ذاتا.

بعد أن ثبت في ذهنك أن الموضوع هو ملاك تمايز العلوم وان اختلافات الموضوعات قد يكون ذاتيا وقد يكون أحواليا و صفتيا،لك أن تسأل وتقول أن الموضوعات كما تكون متخالفة ومتباينة فيما بينها فهل يمكن أن تكون متداخلة ومشتركة فيما بينها كذلك؟

للجواب نقول: ان الموضوعات اذا كانت متباينة ذاتا في موضوعها فلا تداخل ولا اشتراك بينها كما تقدم من مثال موضوع الطب والرياضيات لكن إن كان الاختلاف بين موضوعاتها احواليا وصفتيا فان نوع تداخل واشتراك قد يقع بينها وتفصيله كالآتي فإمّا أن يكون احد الموضوعين اعمّ كالجنس، و الآخر اخصّ كالنّوع أوالأعراض الخاصة بالنوع.

و إمّا أن يكون فى الموضوعين شيء مشترك و شيء متباين مثل علم الطب و الأخلاق: فإنهما يشتركان في قوى نفس الإنسان من جهة ما الإنسانحيوان، ثم يختصّ الطّب بالنظر فى جسد الانسان و اعضائه، و يختصّ علم الأخلاق بالنظر في النّفس الناطقة.

و أمّا القسم الأوّل من هذين القسمين فامّا ان يكون العامّ فيه عموم الجنس، او عموم اللّوازم مثل الواحد و الموجود.

و أمّا الّذي عموم احد الموضوعين عموم الجنس للنّوع فكالنّظر في المخروطات على أنها من المجسّمات، و في المجسّمات على أنّها من المقادير.

و أمّا الذي عمومه كالجنس لعارض النّوع فمثل موضوع الطبيعي لموضوع الموسيقى؛ فانّ موضوع الموسيقى عارض نوع من موضوع العلم الطبيعي و هو الصوت(٧).

ومن لطيف الذكر في المقام أن ملاحظة نسب العلوم فيما بينها واكتشاف أيهما اعم وأيهما اخصومعرفة كيفية التداخل والاشتراك يُعينُ الباحث القاصد لمعرفة أسرار العلوم أن هناك جملة من المبادئ مشتركة بين هذه العلوم المتداخلة إن حررها الباحث ونقحها فانه قد قطع شوطا بدفعة واحدة في علوم مختلفة، لكن ليلتفتأن هذه المبادئإنما هي مشتركة بين العلوم المختلفة بمقدار اشتراك موضوعات العلوم وما به تماثلها وان الباحث قادر على إعمال هذه المبادئ بمقدار هذا الاشتراك بين العلوم لا مطلقا وهذا محل منزلق الأقدام حيث وقع بعض من ليس له تمرس بالعلوم بان أجرىمبادئ علم في مسائل غيره بمجرد أن لاحظ نوع اشتراك بين موضوعيهما فوقع في تحصيل ما لا ينبغي من النتائج في علمه الباحث فيه فأوجد فجوة في العلم من حيث لا يشعر ومن حيث غفلة بأهمية مثل هذا الموضوع.

هذا تمام الكلام في المرحلة الأولى من مراحل البحث.

المرحلة الثانية: بيان أن مسائل العلم أنما يتم بناء هيكلتها من خلال الاقتصار في العلم على دراسة ما يعرض أولا وبالذات لموضوع ذلك العلم ولا تعتني بدراسة مطلق ما يعرض الموضوع.

بعد إثبات وتشخص محور العلم ومسائله المتمثل بموضوعه علينا في المرحلة الثانية بناء وإنشاء هيكلة المسائل التي ينبغي أن نبحثها في العلم ولو بنحو إجمالي كي نتمكن من ضبط ما يلزم بحثه في هذا العلم ولا نخلط الأوراق فيما بينها ونُدخل ما ليس في العلم في العلم، وبطبيعة الحال إن بحثنا مسائلة هي ليست من مسائل هذا العلم فحتما سننتهي إلى نتيجة فيها

على خلاف واقعها وبهذا نكون قد ساهمنا بإيجاد فجوة جديدة في العلوم بعد فجوة خلط المواضيع ومنه تتبين أهمية هذا البحث ومقدار دوره في رفع الخصومات المفتعلة في العلوم.

لكن ثمة سؤال حاصله كيف نتمكن من رسم الملامح الأولىوهيكلة مسائل العلوم بنحو أولي ؟

للجواب عن ذلك نقول:أن هذا البحث كان الشغل الشاغل للفلاسفة والمفكرين منذ القدم بحيث لاتخلو كلمات المعلم الاول ارسطو من ذكره فيما وردنا من النص الكامل لمنطقه وان لم يكن قد اشار اليه بعنوانه الخاص وبحثه المتعارف، الى ان وصلت النوبة الى فلاسفة الاسلام فنجد ان ابن سينا قد اشبع كتبه في بيان ملاك التعرف على طبيعة مسائل العلم وتعرض لذلك في موارد عدة منها في كتابه الشفاء سواء في بيان موضوع العلم او في باب البرهان، وكذا ذكره في سائر كتبه المنطقية مثل الاشارات والتنبيهات والرسائل وغيرها من متفرقات كتبه، وكذلك قد اشار اليه بنحو تفصيلي المعلم الثاني الفارابيفي كل كتبه المنطقية امثال المنطقيات للفارابي واحصاء العلوم، وهكذا توالت ذكر هذا المطلب على جميع السنة الفلاسفة في العصر الاسلامي او من تعرض لمطالب الفلسفة الى يومنا هذا من امثال شيخ الاشراق والميرداماد المعلم الثالث والفخر الرازي والشهرزوري وبهمنيار و وابن رشد وابن باجة وصدر المتألهين وغيرهم.

وحاصل ما ذكروه اشيرُ اليه بكلمة واحدة مختصرة، هو ان مسائل العلم ينبغي ان تتعرض إلى ما يعرض الموضوع أولا وبالذات ومن تأثير ذاتهلا مطلق ما يمكن ان يعرض الموضوع، فمن أرادأن يرسم ملامح مسائل علم الطب مثلا عليه ان يبحث ما يمكن أن يعرض الجسم لذاته من جهة ماهو مبحوث عنه لا ما يعرض الجسم مطلقا فلذلك نرى أن علم الطب يهتم بدراسة ما يتألف منه الجسم وما يعرضه من أمراض ويهتم بدراسة خصائص الأعضاءووظائفها ولا نرى أن علم الطب يبحث كون الجسم ابيضا أو اسودا ا وان جسم عالم أم جاهل فإنها من الأعراض الغريبة التي تعرض الجسم لا لذاته من حيث الجهة المبحوث عنها.

ولا أريد هاهنا الغور في عرض مزايا هذا المطلب وبيان كلام أهل النظر فيه لطول الكلام عنه وكثرة مقدماته لكن من أراد التعمق فيه فعليه بمراجعة كتب القوم ممن اشرنا

إليهم وقد أجاد شيخنا الأستاذ الدكتور ايمن المصري بعرض المطلب بصورة مهذبه في كتابه شرح الإشارات والتنبيهات في الفصل الخامس عشر من النهج الأول.

المرحلة الثالثة: بيان ما يناسب موضوعات العلوم من منهج للتعرف على أحكام ما نسبت إليه.

لو أردناأننكتب تعريفا مختصرا للمنهج الذي أردنا عرضه في مرحلتنا هذه والذي يلعبدورا كبيرا في حل كثير من مسائل العلوم و رفع الخصومات بين المتحاورين لأمكنناأن نقول أن المنهج هو عبارة الأسلوب والطريقة التي تتبع في الاستدلال على إثبات الأعراض الذاتية لموضوعات العلوم، وبعبارة أخرى نقول هو نحو الاستدلال على صحة مسائل العلم.

من هذا التعريف يتبين بدوا أن تحديدمنهج العلم يتوقف على معرفة أمرين:

الأمرالأول: معرفةالطبيعة الماهوية والوجودية للموضوع، فقد يكون الموضوع موجوداً له نحو وجودي غير متلبس بلباس إمكاني و مادي كما في وجود الباري تعالى شأنه وعندها لا يمكن إخضاع مثل هذا الموضوع لمنهج مشتمل على قوانين عالم الإمكان ككون كل موجودٍ له علة إذ مثل هذا القانون إنما يخضع له الموجود ألإمكاني لا كل موجود ومن عرف هذا ستنسد معه فجوة إنكار الوجود الإلهي المستندة إلىأن ما لا يقع تحت تجربتي فهو ليس بموجودلإمكانأن يقال له أن طبيعة الموضوعالإلهيونحو وجوده مما لا يمكن إخضاعه لمنهج الحس والتجربة لعدم تلبسه بلباس المادة ومنال الحس.

وقد يكون للموضوع نحو وجودإمكاني لكنه متنزه عن عالم الحس والمادة كوجود العقول أو ما يصطلح عليها بالملائكة روائيا، فمثل هذا السنخ من الموضوع لا يمكن أن يتعامل معه على ضوء منهجالحس والتجربة وان أمكن التعامل معه على أساس قوانين عالم الإمكاناذ عالم الإمكانأوسعوجودا من المادة بحسب الفرض ، وقد يكون لموضوع العلم نحو وجود إمكاني متلبس بالمادة وعوارض المحسوسات، ومثل هذا الموضوع من الممكن أن يُجرىعليه المنهج المشتمل على قوانين عالم الإمكان وقوانين عالم المادة المتمثلة بالمنهج الاستقرائي والمنهج التجريبي.

فمما ذكرناه – وان كان ذكرُهُ بنحو إجمالي– في هذا الأمر الأول يتضح أن تحديد طبيعة موضوع العلم لها الأثر الكبير في تعيين طبيعة المنهج المتبع في تقصي حقائق مسائله، وسيأتي منا بإذنه تعالى بياناًأكثر لهذه المسائلة عند التعرض للمناهج المقترحة في العلوم.

الأمر الثاني: معرفة الأدوات التي زود الإنسان بها في اصل تكوينه ، وسر تعرضي لهذا الأمر الثاني وجَعْلُهُمن الموارد المتوقف عليها معرفة المنهج هو أنالمناهج التي يتمكن الإنسان من استعمالها يستحيل أن تكون خارجة عن حيطة قواه وأدواته المُتَمكِن من إعمالها وتوسيطها في التوصل إلى حقائق الأمور، وهذا التوقف والاعتماد يستدعي منا أن نبحث أولا عن القِوى والأدواتالتي يتمكن الإنسان من تسخيرها لمعرفته وبيان حقيقتها ودليل صحة الاعتماد عليها ودائرة حجيتها ومقدار كشفها عن الواقع على ما هو عليه؛ ليتسنى لنا استعمال كل أداة من أدوات المعرفة في مجالها، وتوظيفها في حقلها المعرفي المخصص لها، وهذا التوظيف هو ما نصطلح عليه بالمنهج المتبع في العلم.

ولبيان بحث أدوات المعرفة نقول:

أولا الحس :

موضوع الإدراك الحسي يبدأ به كل فيلسوف يهتم بنظرية المعرفة،فليس الاهتمام به مقصورا على الفيلسوف التجريبي ،وإنما يهتم به الفلاسفة التجريبيون والعقلانيون والواقعيون والمثاليون على حد سواء،وان اختلفت وجهات نظرهم بالمعرفة التي تصلنا عن طريق الإدراك الحسي.

وسبب هذا الاهتمام راجع إلى أن الإنسان أولا وقبل كل شيء كائن حساس يبدأ إدراكه لنفسه وللعالم من حوله باستخدام حواسه، فالحواس اول مراحل الادراك عنده وعليه لا يتاتى لذي لب فيلسوفا كان او غيره ان ينكر هذا اللون من الادراك او يتجاهل قيمته ولذلك لم يكن غريبا أن نجد الفيلسوف الألماني كانط يفتتح كتابه ويقول :"تبدأ كل معرفتنا مع التجربة ،ولا ريب في ذلك البتة لان قدرتنا المعرفية لن تستيقظ إلى العمل أن لم

يتم ذلك من خلال موضوعات تصدم حواسنا ،فتسبب من جهة حدوث التصورات تلقائيا ،وتحرك من جهة أخرى ،نشاط الفهم عندنا إلى مقارنتها ،وربطها أو فصلها ،وبالتالي إلى تحويل خام الانطباعات الحسية إلى معرفة بالموضوعات تسمى التجربة ...."[٨].

ولمعرفة حقيقة هذه الأدوات ومدى حدود كاشفيتها ومقدار حجيتها ندخل في أبحاث عدة .

أولا :تعريف الحس:

ينقسم الحس إلى حس ظاهر وحس باطن والكلام فعلا في ما يرتبط بالحس الظاهر ،ويمثل الحس الظاهر القوة المدركة من الخارج المختصة باكتشاف الخارج المادي أو"هو إدراك الشيء الموجود في المادة الحاضرة عند المدرك على هيئات مخصوصة به معه من ألاين و المتى،والوضع والكيف والكم وغير ذلك"[٩].

ومن هذين التعريفين نفهم أن الحس هو إدراك ظواهر الأشياء دون بواطنها،وحقائقها.

ثانيا :الحواس الخمس:الحواس الظاهرة عند الإنسان خمس:

١- البصر وهي قوة تدرك ما يتأدى إليها من صور المبصرات.

٢- السمع وهي قوة تدرك صورة ما يتأدى إليها من تموج الهواء المنضغط.

٣- الشم وتدرك ما يؤدي إليها الهواء من الرائحة الموجودة في البخار المخالط له أو الرائحة المنطبعة فيه بالاستحالة من جرم ذي رائحة.

٤- الذوق وتدرك الطعوم المتحللة من الأجسام المماسة لآلة الذوق المخالطة للرطوبة العذبة التي فيه مخالطة محيلة.

٥- اللمس وهي قوة مرتبطة في أعصاب جلد البدن كله ولحمه وتدرك ما يماسه ويؤثر فيه بالمضادة المحيلة لهيئة التركيب.[١٠]

ثالثا :كيفية حصول الإدراك الحسي وشرطه:

أن حصول صورة المحسوسات في النفس إنما يكون بسبب استعداد مادة الحاسة لها،فان لامست أيدينا الحرارة مثلا تحس بالحرارة ،و يتأثر عندها الاستعداد المختص بحاسة اللمس الموجود فيها ،و كذا البصر إنما يقع فيه الإحساس بصورة المبصر للاستعداد الذي هو

فيه،وهكذا في باقي الحواس،ولذا وانطلاقا من هذا المبدأ كان لكل حاسة من الحواس حد تقف عنده ولا تتعداه،لمحدودية الاستعداد الموجود في كل حاسة فليس للبصر خروج عن رؤية الألوان ونقص عن فعله ،ولا له أن يرى الأبيض اسودا ،وكذلك السمع والذوق وغيرهما ،وكل منهما يعجز عن فعله الآخر فالسمع لا يبصر والبصر لا يسمع وهما لا يذوقان ،ولا يشمان ولا بالعكس لكون كل حاسة لها استعداد خاص كما قدمنا.[١١]وهذا الاستعداد الموجود في كل حاسة سبب وشرط أول لحصول الحس.

و أيضا من شرط حصول الإدراك الحسي للمحسوس بالاظافة إلى وجود الاستعداد هو أن تكون آلة الإدراك سليمة وان يكون المحسوس حاضرا عند آلة الإدراك،فمن اختلت عنده آلة الإدراك لمرض أو لأي سبب كان لم يتمكن من إدراك ما يحسه بها فلا يحس المبصرات إن ختلت عينه ولا يحس المسموعات إن اختلت أذنه وهكذا . وكذا لا يدرك المحسوس إن لم يكن في سمت حاسته وواقعا في ضمن حد إدراكها فلا يدرك بعينه مُبصَراً ما لم واقعا أمام عينه أو في ضمن حدود رؤيتها.

رابعا :سمات الحواس الخمس

١- : أنها لا تدرك إلا الكيفيات المادية بحيث أن الحس يأخذ الصورة عن المادة مع لواحقها من الكم والكيف والوضع وألاين بعد أن يكون على نسبة بينه وبين المادة بحيث إذا زالت تلك النسبة زال ذالك الإدراك،لذا قيل أن حضور المادة شرط في الإحساس وان الحس لا يدرك مع فقد المادة على ما بيناه من شرط حصول الإدراك الحسي.

٢- :أن الحواس محتاجة إلى الآلات البدنية وبعضها إلى الوسائط، فأما الوسائط فمثل الهواء للإبصار وأما الآلات فمثل العين للإبصار،لذا اشتهر عن المعلم الأول انه من فقد حسا- أي آلة من آلات الحس- فقد علما،وسر الاحتياج إلى الوسط أو الآلة هو أن الإحساس انفعالٌ ما يحتاج إلى الآلة والوسط في بعضه ،وعليه لا يمكن للنفس أن تحس المحسوسات بلا وسائط البتة ولا آلات ولو كان الأمر كذلك لكانت هذه ألآلات معطلة في الخلقة لا ينتفع بها وكذا يلزم أن لا يغيب عنها ما هو بعيد مثلا أو ما هو صغير

الحجم جدا لكون فرض عدم الاحتياج إلى آلة الحس للإحساس أو يلزم أن لا فرق بين الكبير و الصغير والبعيد والقريب.

٣- :"أن كل حاسة فإنها تدرك محسوسها وتدرك عدم محسوسها،أما محسوسها فبالذات،وأما عدم محسوسها كالظلمة للعين والسكوت للسمع وغير ذلك فإنها تكون بالقوة لا بالفعل "[١٢]

٤-:"إنه بينها شدة وضعف في الإدراك،ويتبع ذلك خسة وشرف في ذاتها يعيّن مكانتها في مجمل الجهاز الحسي،فمثلا ترى أن الإدراك أللمسي يشغل أدنى قائمة في هذه اللإدراكات،بحيث لا يخلو منه حيوان، إذ بانتفائه لا يكون بعد ذلك حيواناً، بل إما نبات أو جماد.

و سبب انحطاط حاسة اللمس يتمثل في احتياجها للاتصال المباشر و المماسة الساذجة الاحتكاكية بمصدر الكيف،وإدراكها إدراك إجمالي لمحسوسها،وبهذا الملاك نفهم أن حاستّي الشم والذوق متميزتان بالرفعة عليها؛ لكون إدراكهما أكثر تفصيلاً وأدق تمييزاً.

وكذلك نفهمانحاسة الشم أشرف من الذوق لقدرته على إدراك المصدر من بعيد دون الذوق.

و هذه اللإدراكات الثلاثة متمحضة في الحيوانية،ليس لها أثر على العقل،لأنها تدرك الأشياء المحسوسة الخسيسة.

أما السمع و البصر فهما أشرف وأرفع من الحواس الثلاث المتقدمة من جهة ان ادراكهما اكثر دقتا وتفصيلا،و كما يمكن الادراك بهما ولو عن بعد ولا يفتأ الإنسان يحتاج إليهما؛ ولذلك يحتج القرآن الكريم دائماً بالسمع والبصر[١٣]، ويصف المولى القدير ذاته المقدسة بالسميع والبصير[١٤] "[١٥]

و من الجدير بالذكر ان الحواس يمكن اعتبار شرفيتها بملاك طبيعة الادراك العلمي لها فيكون الترتيب المتقدم هو الاولى اذ البصر اشرفها ادراكا واللمس ادناها وهذا ما اعتبره ارسطو في كتبه[١٦]. كما انه يمكن دراسة الحواس بملاك اهميتها للحيوان وبساطتها وبهذا الملاك تكون حاسة اللمس هي المقدمة على باقي الحواس انتهاءا بالسمع والبصر اذ لا يكون

الحيوان حيوانا الا بها ولا يستغني عنها لكونها ضرورية لوجود الحيوان،يدرك بها النافع و الضار و اللاذ و المؤلم، و هي حاسة الطعام و الشراب.

اما سائر الحواس فلا تفيد الوجود الحيواني، بل كمال وجوده، لذا قد لا توجد في بعض الحيوان مع وجود اللمس ،وهذا ما اعتمده الشيرازي في اسفاره[١٧].اما ابن سينا ففي موضع يلتزم النهج الارسطي[١٨]،وفي آخر يلتزم عكسه تماما[١٩].

خامسا :قيمة المعرفة الحسية

١- ذهب الاتجاه السوفسطائي إلى أن الإدراك الحسي لا قيمة له ولا يمثل مصدر من مصادر المعرفة،وسر اعتقادهم هذا لكونهم منكرين لأصل واقعية الأشياء فبالتالي ما تفرع عن ما يسمى بالواقع يكون باطلا ووهما لا حقيقة له تبعا لوهمية ما يسمى بالواقع .ويرد عليهم بما يرد في إثبات اصل الواقعية وان زعم انتفاء الواقع مخالف لأصل الفطرة البشرية السليمة وله بحثه في غير هذا المقام.

٢- ذهب الاتجاه الحسي المادي إلى عدم نكران قيمة وجود الحواس وإمكان إحساسها بما حولها لكن فرض أن اليقين بها ليس على غرار اليقين المستفاد من العلوم الوجدانية التي يصدق بها العقل بلا واسطة كعلم النفس بذاتها وان ثلاثة مضروب ثلاثة يساوي تسعة وإنما يمكن عدها في زمرة الظنون والخيالات على مستوى البحث العلمي والمعرفي لكن يجب التصديق بها وترتيب الأثر عليها على مستوى البحث العملي إذن ليس لها في ادراكاتها قيمة علمية وان كانت لها قيمة عملية يجب الأخذ بها .

و بعضهم صرح أن الصور التي ندركها بواسطة حواسنا ليست دليلا على حقيقة الأشياء الخارجية ،بل تمثل آثار الذرات المتنوعة التي تخرج من الأجسام وترد الأعضاء الحسية.

٣- "ذهب الاتجاه العقلي إلى أن الحس أمين في نقله، إذ يقوم بنقل العوارض المادية المحسوسة دون أدنى تغيير في ضمن ظروف إدراكها كما أن له أصالة إعدادية واضحة في تصور المعقولات الأولى الماهوية كالإنسان والشجر، فإذا لم يتم رؤية زيد أو عمر لا يمكن إدراك الإنسان كمعقول كلي، لذا صدع المعلم الأول بمقولته الشهيرة (من فقد

حساً فقد علماً)، أي بمعنى فقد العلم التصوري الماهوي، الذي يمثل علة معدّة لتصور المعاني الأولى الماهوية،وقد ثبت بالبرهان أن النشاط الذهني للنفس البشرية يبدأ من الحواس وان كل المعلومات و المعقولات تتوفر عليها النفس أما عن طريق الحس بشكل مباشر ،وأما أن يكون تجمع الادراكات الحسية أرضية لاستعداد توفر النفس على المعلوم ،وان النفس بذاتها وبالفطرة لا يمكنها أن تتوفر على إدراك الأشياء الخارجية.

لكن ليس للحس أية مدخلية في مطلق تصور المعقولات الثانية الاعتبارية المنطقية أو الفلسفية،وكذلك مطلق التصديقات والتي سيأتي الإشارة إليها في مبحث الأداة العقلية؛ لأن العقل هو الحاكم المطلق فيها.

والجدير بالذكر أن جعل المحسوسات من البديهيات إنما تعني حكم العقل بتوسط الحس في إثبات أصل وجود الأشياء في عالم الطبيعة، أي ثبوت العوارض المادية المحسوسة دون أنحاء وجودها التفصيلية"[٢٠].

ثانيا التجربة:

التجربة: عبارة عن تكرار المشاهدة لجزئيات متماثلة،تحت ظروف متشابهة لإحراز التلازم بين الأثر والمؤثر.

والتجربة محتاجة إلى أمرين في تحققها بحسب ما يعطيه التعريف :

الأول :تكرر المشاهدة .

الثاني :استنادها إلى قياس خفي من خلاله نقطع بحصول التلازم بين الأثر والمؤثر وحاصل هذا القياس هو أن تكرر تلازم الأثر والمؤثر على نهج واحد في مشاهدات متكررة لا يكون اتفاقيا إذ ألاتفاقي لا يكون اكثريا ولا دائميا وعليه يكون هذا التلازم مستندا إلى علة واقعية تمثل العلاقة بين الأثر والمؤثر وان لم نعلم هويتها إذ علمنا بتكرر الأثر إنما هو مستند إلى علمنا بوجود المؤثر لا إلى علمنا بماهية المؤثر فالجهل به لا يسري إلى القطع بوجود الملازمة .

ومن هنا يتبين أنّه ما من معرفة طبيعية تجريبية إلاّ وفي جنبها معرفة عقلية قطعية لولاها لكانت التجربة عقيمة غير مفيدة.

وممّن تنبّه إلى ما ذكرنا الشيخ الرئيس: فقد أجاب في سؤال من سأله عن علّة إيراث التجربة اليقين، بأنّ التجربة ليست بمعنى أنّ تكرار المشاهدات يفيد اليقين، وإنّما المشاهدات (العملية) تفيد اليقين بضميمة قياس عقلي(٢١).

وكذلك الحكيم السبزواري، قال: العلم في التجربة منوط بأمرين: أحدهما المشاهدة، والآخر القياس الخفي، وهو أنّه لو كان اتّفاقيّاً، لما كان دائماً ولا أكثرياً، ثم يستثني نقيض التالي لنقيض المقدّم.(٢٢)

ومن هنا نستطيع إيجاد الفرق بين التجربة والاستقراء حيث أن التجربة ما كانت معتمدة على القياس الخفي وبخلافه الاستقراء ما كان معتمدا على مجرد المشاهدات الجزئية بدون ذلك القياس،ومنه أفادت التجربة اليقين دون الاستقراء لاعتماد الأول على القياس الخفي دون الثاني.

ولتوضيح كيفية جريان الأمرين نقول :

عندما نجد أن الأثر يصدر عن المؤثر، إما بشكل دائمي (فيكون علة تامة) وإما بشكل أكثري (فيكون مقتضياً)، ففي هذه الحال يحكم العقل أن هذا الأثر اللازم ولزومه إما أن يكون لازماً لأمر أعم، أو مساوي، أو أخص.

والأول مثل جنس المؤثر والثاني مثل فصل المؤثر، وهما ذاتيان للمؤثر، والذاتي لا ينفك عن ذي الذاتي، وبذلك نضمن صفة الدوام أو الأكثرية.

أما لو كان لازماً لأمر أخص؛ فحينئذٍ ينفك عنها فيما لو جرب فرد آخر غير الأخص ولذلك ينبغي على المجرب أن يكون حريصاً على تجنب الوقوع في محذور اللزوم لأمر أخص، والمثال على ذلك:شفاء الم الرأس عند تناول علاج الاسبرين بنحو دائمي أو أكثري كاشف عن علاقة التأثير بين علاج الاسبرين وشفاء الم الرأس ولا تخرج هذه الظاهرة عن احد الاحتمالات الثلاثة المزبورة،فإما أن يكون الأثر معلولاً للأعم؛ فمعنى ذلك أنه ليس شفاء الم الرأس بتناول علاج الأسبرين فقط بل بعموم ما ماثل علاج

الأسبرين في شفاء الم الرأس وحيث أن الأعم مصاحب للأخص دائما فيكون كل علاج الأسبرين معالج لألم الرأس ولا يؤثر ذلك على الاستدلال لان الأعم مقوم للأخص.

وأما إذا كان معلولا لأمر مساوي أي شفاء الم الرأس بسبب الملاقات لخصوص تناول علاج الاسبرين فينتج انه كلما تناول علاج الاسبرين فان ألم الرأس يشفى وايضا لا يؤثر ذلك على الاستدلال كما في الاعم .

وأما اذا كان معلولا لامر اخص كما لو كان شفاء الم الراس لخصوص تناول علاج الاسبرين المحلي مثلا ،فعندها يحصل الانفكاك ويؤثر على الاستدلال لانه لا نستطيع بعد ذلك ان نحكم بان كل علاج اسبرين مشاف لالم الراس بل لابد من تقيده بالمحلي دون غيره.

لذلك لابد من تجربة جميع أفراد علاج الاسبرين لكي لا يقتصر الأثر في الشفاء على الاسبرين المحلي فقط، وهذه هي فائدة احتياج المجرّب في تكثيره الجزئيات الموجودة وتغييره الشرائط الزمانية والمكانية،ما استطاع إلى ذلك سبيلاًوالتي يحتمل أن يكون لها مدخلية خاصة في صدور هذا الأثر دون غيره،كي يتمكن أن يؤلف قضية كلية ضروية مفادها: (كل علاج الاسبرين مشف لألم الرأس).

فبتكرار المشاهدة، يُحرز التلازم بين الأثر والمؤثر، وبانضمام القضية الضرورية (أن الإتفاقي لا يكون أكثرياً ولا دائمياً) ينتج أن المؤثر علة ذاتية للأثر، فتترشح قضية ضرورية دائمية أو أكثرية موضوعها الطبيعة الموجدة للأثر، مثل طبيعة النار أو طبيعة الجسم أو النبات.

قال الشيخ الرئيس في كتاب الشفاء:

"لما تحقق أن السقمونيا يعرض له إسهال الصفراء ويبقى ذلك على سبيل التكرار الكثير علم أن ليس ذلك اتفاقاً، فإن الاتفاق لا يكون دائماً أو أكثرياً، ونعلم أن ذلك شيء توجبه السقمونيا طبعاً[٢٣]".

وقد أكدّ الشيخ الرئيس في كتاب الشفاء على أن هذا اليقين المستنتج من التجربة المعتمد على القياس الخفي لابد أن يكون مشروطاً بمراعاة الظروف لتلافي وقوع محذور أخذ ما

بالعرض مكان ما بالذات وغيرها،فالذي في السودان يرى دائماً أشخاصاً ذوي لون أسود فيقول: كل (إنسان أسود)، وهذه القضية ليست ضرورية، فلابد من أخذ قيد (السودان) حتى تصير ضرورية قال:"واعلم أن التجربة ليست تفيد إلاّ في الحوادث التي على هذا السبيل وإلى هذا الحد، وإذا اعتبرت هذا القانون الذي أعطيناه، سهل لك الجواب على التشكيك المورَد لحال الناس السود في بلاد السودان وولادتهم السود.

وبالجملة، فإنّ الولادة إذا أخذت من حيث هي ولادة عن ناس سود أو عن ناس في بلاد كذا صحّ منه التجربة، وأما إن أخذت من حيث هي ولادة عن ناس فقط فليس للتجربة متأتية باعتبار الجزئيات المذكورة؛ إذ التجربة كانت في ناس سود، والناس المطلقون غير الناس السود"[٢٤].

ثم قال:"ولهذا فإنّ التجربة كثيراً ما تغلّط أيضاً إذا أخذ ما بالعرض مكان ما بالذات فتوقع ظناً ليس يقيناً"[٢٥].

حدود التجربة :

ليعلم أن حدود التجربة لا تتعدى أكثر من معرفة علاقة الظواهر الطبيعية فيما بينها المنعكسة على الحواس المعبر عنها بالكيفيات الحسية كما مثلنا سابقا وكما ذكر الشيخ الرئيس من مثال في كلامه ولا سبيل لها لمعرفة علاقات ما بعد الطبيعة من معرفة حقائق الأشياء أو أجناسها أو فصولها.

ثالثا العقل:

العقل اصطلاحا:

يطلق العقل ويراد به معاني متعددة فتارةً يطلق ويراد منه ما يقصده الجماهير وغير المتخصصين فلسفيا وتارة يطلق ويراد منه ما عنى به الفلاسفة بحسب اصطلاحهم،لذا كان للعقل أطلاقات عدة:

الأول: يراد به صحة الفطرة الأولى في الناس فيقال لمن صحت فطرته الأولى انه عاقل ويكون حد العقل عندها انه قوة يدرك بها واضحات الأمور وأولها وأيضا بها يجوز التمييز بين الأمور الحسنة القبيحة ويمكن تسميته بالعقل الفطري.

الثاني:ويراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية،فيكون حده انه معاني مختلفة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها المصالح والأغراض ويمكن تسميته بالعقل العرفي.

الثالث: وهو معنى آخر يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته ويكون حده انه الهيئة المحمودة للإنسان في حركاته وسكناته وكلامه واختياره.(٢٦)

الرابع :العقل التراثي وهو معنى راجع إلى ما يعكس عادات وتقاليد الأمم المختلفة وطريقة تفكيرهم على مر العصور.

الخامس:العقل الفلسفي وهو الجواهر المجردة ذاتاً وفعلاً المعبّر عنها بالعقول بلسان الفلاسفة أو الملائكة بلسان الشرع.

السادس: العقل باصطلاح المناطقة أو العقل الأرسطي وهو ما يمثل مرتبة من مراتب الإدراك الباطني وراء الحس والخيال والوهم و به تدرك الكليات عند الإنسان و به يتميز عن بقية الحيوانات من أفراد جنسه.

والعقل المتخذ كأداة من أدوات المعرفة إنما هو العقل الأرسطي او ما كان باصطلاح المناطقة الممثل للقوة المدركة للكليات.

انقسامات العقل:

وينقسم العقل بالقسمة الأولى إلى (عقل نظري)و(عقل عملي)،وهما قوتان عقليتان قائمتان بجوهر النفس الإنسانية المجردة ،"وكان أرسطو أول من أشار إلى هذا التقسيم وقد ميز بينهما،فذهب إلى أن العقل يدرك الكليات والجزئيات جميعا ولكن باختلاف ،فهو يدرك ماهية الماء ويدرك أن هذا المعلوم بالحس ماء فاعتباره مدركا للماهيات في أنفسها يسمى عقلا نظريا ،فإذا ما حكم على الجزئيات بأنها خير أو شر فحرك النزوع إليها أو النفور منها سمي عقلا عمليا"(٢٧) .

ومن الفلاسفة الذين اعتمدوا هذا التقسيم الأرسطي ابن سينا فهو يرى ان للنفس الإنسانية نسبة وقياس إلى ناحيتين او الى جنبتين جنبة هي من تحتها ،وجنبة هي من فوقها ولها بحسب كل جنبة قوة تنتظم بها العلاقة بين النفس وبين تلك الجنبة.(٢٨)وقصد من الجنبة

السفلى القوة العملية المرتبطة بجهة البدن،ومن الجهة العليا القوة النظرية لكونها دائمة القبول والانفعال عما فوقها من المفارقات.

أما العقل النظري فهو ما يدرك القضايا الكلية والجزئية إلا أن إدراكه للقضايا الكلية بنفسه وإدراكه للقضايا الجزية فبتوسط غيره وأما ما اشتهر من أن العقل النظري لا يدرك الجزئيات فمرادهم من ذلك لا يدرك الجزئيات بنفسه لا مطلقا.

وينقسم العقل النظريإلى عقل نظري بسيط وعقل نظري مركب أما البسيط فهي الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها و به يدركون القضايا البديهية أو ما كان قريبا منها و به يتمكن الناس من إدراك معرفة أحقية الأديان وكلي حسن العدل وقبح الظلم وما قارب ذلك.

وأما العقل النظري المركب فما كان مدركا لمسائل محتاجة إلى عملية التركيب والتحليل في الاستدلالات المركبة فهو عقل خاص لفئة خاصة من الناس لا مطلقا،وليعلم أن العقل المركب اصلُ نشوءه من العقل البسيط بعد أن ادخل عليه التدريب والتمرين لذا كان عقلا خاصة بفئة ،فمن اتبع أسلوب التدريب والتمرين حاز على مرحلة العقل المركب وإلا بقى مكتفيا بالعقل البسيط ،فالعقل المركب ليس بالأمر المنفصل عن العقل البسيط كما تصوره البعض وحاول إيجاد الفرق بين ما يسمى بالفطرة التي اشرنا إليها وبين العقل الفلسفي ألتعقلي فما العقل ألتعقلي إلا كمال العقل البسيط المسمى بالفطرة في مصطلح القرآن.

وأما العقل العملي فقوة للنفس هي مبدأ التحريك للقوة الشوقية إلى ما تختاره من الجزئيات،لأجل حكم كلي مستنبط من مقدمات بديهية أو مشهورة أو تجريبية.

مثلا لنا مقدمة كلية وهي أن كل حسن ينبغي فعله وقد استخرجنا مهنا أن الصدق ينبغي أن يؤتى به وهذا رأي كلي أدركه العقل النظري ثم أن العقل العملي لما أراد أن يوقع صدقا جزئيا فهو إنما يفعل بواسطة استخراج ذلك الجزئي من الرأي الكلي كأنه يقول هذا صدق وكل صدق ينبغي أن يؤتى به وهذا رأي جزئي أدركه العقل العملي أيضا لكن العقل العملي إنما يفعل هذا الصدق للعلم بذلك الجزئي فالعقل العملي بل النفس إنما يصدر عنها الأفعال لآراء جزئية ينبعث من آراء كلية عندها مستنبطة من مقدمات بديهية أو مشهورة أو

تجريبية على ما ذكرنا وهذه قوة محركة ليس من جنس العلوم، وإنما سميت عقلية لأنها مؤتمرة للعقل مطيعة لإشاراته بالطبع، فكم من عاقل يعرف أنه مستضر بإتباع شهواته، ولكنه يعجز عن المخالفة للشهوة لا لقصور في عقله النظري بل لفتور هذه القوة التي سميت العقل العملي، وإنما تقوى هذه القوة بالرياضة والمجاهدة والمواظبة على مخالفةما لا ينبغي فعله.

وظائف العقل النظري :

تنقسم وظائف العقل إلى صنفين وظائف تصورية و وظائف تصديقية:

أما الوظائف التصورية :

١- التجريد وهي من الخطى الأولى للعقل حيث يجرد ما يصل إليه من المعاني الجزئية عن ملابسات الزمان والمكان بنحو لا يكون المعنى متعلق الإشارة الحسية وتسمى الصورة عندها بالشخص المعقول.

٢-تحليل والتركيب المفاهيم الكلية،كتحليل مفهوم الإنسان إلى حيوان ناطق.

و تركيب التعاريف للمفاهيم على أساس الاستفادة من العناصر المشتركة والعناصر الخاصة التي تعرف عليها في عملية التحليل.

٣- التقسيم والتصنيف: فتقسيم المفهوم الكلي وتكثيره منطقياً بإضافة قيد للمفهوم الكلي فيصير أخص(الجسم إما نام أو لا)،وأما التصنيف (الذي هو عكس التقسيم)فهو إدراج عناوين كثيرة تحت عنوان واحد ،كتصنيف المكتبات.

٤-انتزاع المفاهيم الثانوية الفلسفية والمنطقية وهي التي ليس لها مصداق في الخارج ولكن لها منشأ انتزاع في الخارج كالفلسفية، أو منشأ انتزاعها في الذهن كالمنطقية، فهي اعتبارات ذهنية نفس أمرية.

وأما الوظائف التصديقية:

فهي عمليتي الحكم والاستنتاج وكيفية توالد القضايا بعضها من بعض الذي يتم على وفق نظم و أساليب خاصة.

رابعا :الإشراق والمكاشفة:

وهؤلاء يدعون أن هناك آلة وأداة معرفية وراء الحس والعقل والتجربة بامكانها ان تعطي تفسيرا كاملا عن الوجود ونظامه وتجلياته ومراتبه أي قادرة على اعطاء رؤية كونية متكاملة عن الله والعالم والانسان واطلقوا عليها المكاشفة والشهود او العرفان والتصوف يقول السيد حيدر أملي "اعلم ان العلوم كلها تنقسم الى قسمين رسمي اكتسابي،وارثي الهي،فالعلم الرسمي الاكتسابي يكون بالتعليم الانساني على التدريج مع نصب قوي وتعب شديد في مدة طويلة.والعلم الارثي الإلهي يكون تحصيله بالتعليم الرباني بالتدريج وغير التدريج مع روح وراحة في مدة يسيرة "[٢٩] ومراده من العلم الارثي الإلهي الكشف والشهود أو التصوف والعرفان النظري،وادعوا أنها أعلى واشرف أنحاء المعرفة إذ بها نتعرف على حقيقة الواقع عيانا.

وطريقة حصول المعارف عندهم بالمكاشفة القلبية التي لا تحتاج الى تكسب نظري خارجي على ما عليه علوم الفلاسفة وغيرهم بل يكفي في حصولها اخلاص النية والتوجه بالقلب الى عالم ما بعد الطبيعة لتنفتح عليه انوار الحقائق بأعيانها على ما ذكروا،و ادعوا أن قلب الإنسان عبارة عن مرآة للحقائق وإن العلم والمعارف موجودة في داخلنا ولا نحتاج أن نستجديها من الخارج،بل يكفي أننعمل على تصفية النفس بأن تكون مصقولة،وان نزيل القاذورات والحجب(إزالة العقائد الفاسدة، واجتناب المعاصي والحجب) وأن نوجه المرآة تجاه ما نريد معرفته (التوجه نحو الإشراقات) للتزود من الفيوضات فتنعكس حقائق الامور على ما هي عليها في العيان على رقائق قلب العارف فيعلم بها علما يقينيا.

قال السيد حيدر أملي " وأما كيفية تحصيل العلوم الحقيقية –أي الارثي الالهي- فهو في غاية السهولة ،لانها موقوفة على فراغ القلب وصفاء الباطن ،وهذا يمكن بساعة واحدة وبيوم واحد وبليلة واحدة هذا اذا كان القائل بها قائلا بالكسب ،واما اذا لم يكن قائلا به بل يكون قائلا بانها هبة الهية وعطية ربانية فيمكن حصولها بأقل من ذلك"[٣٠]. وكذا انظر الى ما ذكره صدر الدين الشيرازي "اما العلوم المكتسبة التي تحصل للقلب بالجهد والملاحظة واعمال الفكر فهي علوم الفلاسفة.واما التي تهاجم القلب فجأة فهي التي تسمى بالكشف

والالهام،ويختص بها اهل التصوف وهم الذين لم يحرصوا على دراسة العلم ومطالعة ما صنفه المصنف والبحث عن اقاويلهم بل طريقهم محو الصفات والاقبال بكنه الهمة الى الله تعالى،واذا حصل ذلك كله كان الله هو المتولي لقلب عبده ....."[٣١]

فهم يركزون على السلوك العملي للكسب المعرفي ويجعلونه في عرض الحس والعقل وليس في طولهما، فالسلوك بديل عن العقل والتعليم المدرسى وليس مُعيناً لهما.

و ليعلم أن ما قدمناه من معنى للكشف هو معنى التصوف العملي و هناك نوع آخر من التصوّف وهو التصوف النظري الذي ينسب إلى الشيخ الكبير محي الدين ابن عربي كما في كتبه (الفتوحات المكية ، فصوص الحكم)، والذي حاول فيه أن يفلسف التصوف العملي ويجعل منه علما نظريا قادرا على إيصاله للغير متوفرا على جملة من الحجج الملزمة. فالعرفان النظري هو فلسفة التصوف نظري لا غير بحسب المدعى.

القيمة المعرفية للكشف والشهود :

"إنّ قبول قول بلا حجة ولا برهان، خروج عن الفطرة، فالإنسان العاقل هو من يقبل الدعوى إذا قورنت بالدليل، فصاحب المعرفة الحسيّة أو العقلية يصحّ له تعميم معرفته إلى غيره،فيرشدنا إلى مُبصرَاته ومسموعاته،فنقبلها لأجل تطابق الحسّين،ويرشدنا إلى ماعقله بالبرهان، فنتعقله به أيضاً.وأمّا مدّعي الإلهام،فبما أنّه يدّعي أمراً غير محسوس ولا معلوم بالبرهان،فيكون شهوده -مع فرض صحته وامكان حصوله-حجةً على نفسه فحسب،ودليلاً له لا للغير.ولا يمكنه تعميم ما أُلهم وأشْرَقَ على قلبه،وإراءته لغيره ليشاهده ويعاينه ويشرق على قلبه،لأنّ للإلهام والإشراق مبادئ ومؤهلات خاصة"[٣٢].

فالمكاشفات ليست حجة عقلية أو حسية و إنما هي مجرد إفاضة مرتبطة بالذات الإنسانية يمكن أن يكون مصدرها العقل الباطني.

خامسا الوحي:

والوحي بحسب اللغة هو الإعلام الخفي[٣٣] وله أنحاء متعددة :

١- الإلهام وهو إلقاء المعنى في القلب.

٢- سماع الصوت دون رؤية الصورة.

٣- رؤية الوحي في المنام.

٤- رؤية الوحي في اليقظة بصورة خاصة أو تمثله في شخص من أشخاص من أشخاص البشر.

والنبي كان يوحى إليه بكل من هذه الأنحاء ، وأرقى أنحاء الوحي هو سماع الصوت مع مشاهدة الصورة وأدناها هو الإلهام.

أن التعلم عن طريق الوحي والإيحاء نحو خاص من التعلم مخصوص بفئة خاصة من البشر لا يتعداهم إلى غيرهم حتى لأصحاب النفوس القدسية بحيث لا يمكن اكتسابه بالجد والاجتهاد بل هو أمر خارق للعادة،من خلاله يتعرف الأنبياء والمعصومون على ما ليس من شان العقل أو غيره من أدوات المعرفة أن تعرفه.

إذا تم بحثُ التعرف على الأدوات من حيث حقيقتها وحجيتها ومقدار كاشفيتها وقد حصلنا فما سبق تعيين موضوع العلم نأتي بعد ذلك ونختار لكل موضوع علمأداةً مناسبةً لطبيعة الموضوع من حيث وقوعه تحت دائرة حجيتهاوبذلك يتألف لنا منهجا خاصا لكل علم مناسبا لإثبات صدق مسائله غير قابل للتعدد قضاءاً لحق لزوم المسانخةو المجانسة بين المنهج و طبيعة موضوع العلم على ما قدمناه.

فان كان موضوع العلم مما يقع تحت دائرة اداة الحس مثل موضوع علم الفيزياء او الكيمياء او الطب وغيرها فيلزمنا ان ختار منهجا تنتجه اداة الحس كالمنهج الاستقرائي او المنهج التجريبي ولا يحق لنا ان نختار منهجا نابعا من اداة لايقع موضوع هذا العلم تحت دائرة حجية اداة الحس كالمنهج العقلي الصرف او المنهج الاخباري او الكشفي.

اما اذا كان موضوع العلم مما يقع تحت دائرة العقل كعلم المنطق وكليات المسائل الالهية والفلسفة فلا مناص من لزوم اختيار المنهج العقلي البرهاني لتحقيق مسائله، ولا يمكن استعاضته بالمنهج الاخباري او الحسي او الكشفي وغيرها.

واما اذا كان موضوع العلم مما يقع تحت دائرة اداة الخبر كالاحكام الفقية والحوادث التاريخية فلا مناص من لزوم اعمال المنهج الاخباري للوصول الى نتائجها.

وهكذا في بقية العلوم وحاكمية الادوات فيها.

وملخصا نقول اننا اذا تتبعنا المناهج استقراءا لا نجد الا مجموعة منحصرة من المناهج المتبعة في العلوم حاصلها

١- المنهج الاستقرائي، وراجع في اصوله الى اداة الحس، ومنحصره تفعيله في موارد ما كان للحس ان ينالها.

٢- المنهج التجريبي، كذلك راجع في اصل نشوءه الى اداة الحس، ومنحصر فيما كان للحس طريق له.

٣- المنهج العقلي، متمثل باعمال البرهان العقلي في اثبات مسائله، وترجع اصوله الى اداة العقل حصرا وان كان قد يفتقر الى الاستعانة في بعض مقدماته الى اداة اخرى غير العقل.

٤- المنهج الاخباري، متمثل بالاستفادة مما نقل الينا من اخبار من لم نشهد اخبارهم وحوادث ايامهم وقوال آرائهم وتصريحاتهم كاخبار الحوادث التاريخية او اخبار ما نقل عن الانبياء والاولياء والمفكرين والعضماء.

٥- المنهج الكشفي، متمثل بالاستفادة من اداة الكشف او ما تسمى بالقلب، يُتعرف من خلالها على ما يتلقاه صاحب الكشف من معارف.

اما اداة الوحي فنتاجها منهجا مختصا بثلة من البشر يمثلها الانبياء سلام الله عليهم اجمعين لا تتعدى غيرهم فلذا لم ندرجها ضمن ذكر المناهج لاختصاصها.

- **خلاصة البحث :**

هناك امور ينبغي توفرها في العلوم

١- بيان موضوع العلم لكل علم.

٢- بيان مسائله الدائرة بدوران موضوعه وبيان ما يمكن ان تكون عليه موضوعات مسائل كل علم ومحمولاتها المسمات بالاعراض الذاتية ويتم ذلك من خلال الدليل العلمي لا الاختيار الكيفي.

٣- تعيين المنهج المناسب لكل علم وبيان انحصار المنهج لهذا العلم به دون غيره ويتم ذلك من خلال اقامة الدليل والبرهان ببيان العلاقة بين طبيعة الموضوع وعلاقة ما يقتضيه من منهج .

- **الفوائد المترتبة على ذلك:**

١- فائدة علمية تعين الطالب والسالك في ذلك العلم للوصول الى الحقيقة المتوخاة من طلبه و لا يكون طلبه من قبيل الوهم والسراب الذي لا يرجى منه الا زياده الجهل جهلا والبعد بعدا .

٢- فوائد عملية فالواصل الى حقيقة ما عليه الشيء وما ينبغي ان يكون فانه لا محالة ان كان من اهل الحق والحقيقة ان يرتب على نتائج ما وصل ما ينبغي ان يكون عليه العمل مما نرى اليوم من تسخير ما في الارض لخدمة البشر.

٣- فائدة فنية تُعين الطالب على كيفية التميز بين العلوم وكيفية ارتباط بعضها ببعض وما هو المنهج اللازم لكل منها وكيفية محاكمتها .

٤- فائدة ادبية تُنصِب الحدود وترسم ملامح ملاكات العلوم فَتَعجل حدا للناقدين وتُلْزم قول الناقدين فينقطع القيل والقال لاهل غير العلم ممن بضاعتهم لا تليق بشأن الباحثين، ومن اراد الوقوف على النقد الغير البناء الناتج عن عدم اتضاح ما ذكرنا فليرجع لامثال تهافت الفلاسفة للغزالي وكتب الرد على المنطقيين لابن تيمية وكتاب نقد العقل لكانت وعشرات الكتب مثل هذه.

- **توصيات لكل باحث**

بعد هذا البيان واتضاح دائرة الأدوات وإمكان استخدامها فيما هو شأنها ومدى حجيتها وسعت كاشفيتها،ينبغي على طالب الحقيقة المريد لمعرفة الواقع على ما هو عليه أن لا يتبع ما لا حجية له أصلا ولا يعد في عداد أدوات المعرفةفلا يتبع المنامات مثلا في إثبات حجية قوله أو الخيالات التي يتوهم رؤيتها لخلل ما حصل في قواه، فما مثل هذه الأدوات إلا كالرجم في الغيب والقول بغير دليل ، ولا يركن إليها إلا ضال استحوذ عليه جهله أو مضل يريد أن ينال قصده.

وكذا عليه أن لا يستخدم ما ثبت كونه من أدوات المعرفة وثبتت حجيته ومدى كاشفيته في غير ما هو له فلا يستخدم التجربة مثلا أو الحس في الكشف عن ماهيات الأشياء إذ الحس والتجربة إنما يُنال بها ما كان ظاهرا من آثار الأشياء مختصا بالظاهر

المادي -على ما تقدم بيانه -واقعا في إطار المادة المحسوسة للإنسان بحيث يمكن له أن ينالها بحسه أو يوظفها في اطر نظام تجربته وما خلى ذلك من حقيقة الشيء وكنهه لا تكون في ضمن مناله،و كذا ليس له بالحس أو التجربة أن يثبت أو ينفي ما كان خارجا عن اطر المادة أو أحكامهما إذ ليس ذلك من شانهما.

وأيضا مما ينبغي على كل طالب للحق والحقيقة أن يخوض غمار البحث المعرفي قبل أن يتصدى للبحث عن الحقيقة، فيحدد المنهج الصحيح الذي يجب أن يستعمله في بحثه، حيث ستبتني عليه نظرته للواقع، وبالتالي تحديد قواعد السلوك العملي التي سيعتمدها في إيديولوجية حياته.

هوامش البحث

١- في سنة 1609بدأ جاليليو يصنع منظاراًبوضع عدستين في طرفي أنبوبة من الرصاص، وكان أفضل بكثير من الذي صنعه ليبرشي .بعد ذلك انكب جاليليو على منظاره يحسن من صناعته، وراح يبيع مايتنج منه بيديه، وصنع المئات وأرسلها إلى مختلف بلاد أوروبا، وكان لنجاحه صداه في جمهورية البندقية، ففي تلك الأيام كان كل فرد يعتقد أن الأرضمركز الكون، وأن الشمسوغيرها من الكواكبتدور حولها، وكان الطريق اللبنييعتبر حزمة من الضوءفي السماء، وأن القمرمسطح الشكل. ولكن عندما نظر جاليليو من خلال عدسات منظاره لم يجد شيئا من هذا كله صحيحا، فقد رأى أن في القمر مرتفعات، وأن الشمس تنتقل على محاورها، وأن كوكب المشتريله أقمار، مثلها مثل القمر الذي يدور حول الأرض، ورأى أن الطريق اللبني ليس مجرد سحابة من الضوء إنما هو يتكون من عدد هائل من النجومالمنفصلة والسديم.

وكتب كتابا تحدث فيه عن ملاحظاته ونظرياته، وقال أنها تثبت الأرض كوكب صغير يدور حول الشمس مع غيره من الكواكب، وشكا بعض أعدائه إلى سلطات الكنيسة الكاثوليكيةبأن بعض بيانات جاليليو تتعارض مع أفكار وتقارير الكتاب المقدس، وذهب جاليليو إلى روماللدفاع عن نفسه وتمكن بمهارته من الإفلات من العقاب لكنه انصاع لأمر الكنيسة بعدم العودة إلى كتابة هذه الأفكار مرة أخرى، وظل ملتزما بوعده إلى حين، لكنه كتب بعد ذلك في كتاب آخر بعد ست عشرة سنة نفس الأفكار، وأضاف أنها لا تتعارض مع شيء مما في الكتاب المقدس.

وفي هذه المرة أرغمته الكنيسة على أن يقرر علانية أن الأرض لاتتحرك على الإطلاق وأنها ثابتة كما يقول علماء عصره. ولم يهتم جاليليو لهذا التقرير العلني. انظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

٢- سورة الانشقاق: ٣.

٣- سورة الغاشية: ٢٠.

٤- لمن اراد مراجعة مثل هذه المواضيع فعليه بكتاب فلسفة حضارات العالم :نظريات العالم وتأويلها : الدكتور انطون غرابنر هايدر ترجمة الدكتور جورج كتورة : الناشر مؤسسة شرق غرب – ديوان المسار للنشر.

وكذلك راجع كتاب العلوم الاسلامية وقيام النهضة الاوربية: تأليف: الدكتور جورج صليبا، ترجمة الدكتور محمود حداد.

وكذلك انظر كتاب : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط :تأليف: إتين جلسون : ترجمة وتعليق الدكتور امام عبد الفتاح امام، استاذ ورئيس قسم الفلسفة في جامعة الكويت.

وستجد الغريب من الانحرافات الفكرية الناجمة عن غياب المنهج الصحيح وتحديد موضوعات العلوم ورسم ملامح مسائلها بحيث ادت ببعضهم الى شخصنة العلوم او قومنتها فمن المضحك للثكلى قد سُميت بعض العلوم كعلم الفلك بعلم الفلك الاسلامي او علم الفلك اليوناني او علم الفلك البطلوميسي او الفلسفة الاسلامية او الفلسفة الغربية او فلسفة ابن سينا، فما ظهور مثل هذه الطراهات في العلوم الا ناتجا عن الجهل باسلوب وطريقة تحديد هوية العلم من خلال معرفة موضوعه ومسائله وطبيعة منهجه.

٥- انظر في بيان هذا الفرض ومناقشتهما ذكره الدكتور ايمن المصري في كتابه اصول المعرفة والمنهج العقلي الطبعة، الاولى سنة ٢٠١٠ ، الناشر المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت لبنان.

٦- انظر إلى ما ذكره الفارابي في منطقياته ج١ ص٣١٢ وما بعدها ففيه بيان لملاك تمايز العلوم وكيفية اختلافها.

وكذلك انظر لما ذكره بهمنيار في كتابه التحصيل ص٢١٦ وما بعدها.

٧- انظر فيما ذكرنا كتاب التحصيل لبهمنيار ص٢١٦ وما بعدها.

٨-نقد العقل المحض :عمانوئيل كانط ترجمة موسى وهبة ص٤٥.

٩ -الشيرازي :الأسفار الأربعة ،ص٢٨٦.

١٠ -انظر في جميع ما ذكرنا من تعاريف الحواس الخمس كتاب النفس من كتاب الشفاء للشيخ الرئيس ابن سينا بتحقيق الشيخ حسن زاده آملي ص٥٨ من الطبعة الثالثة سنة ١٤٢٩.

١١ - انظر فيما ذكرنا ،الشيرازي :رسالة إكسير العارفين ،ص٢٩٣ مع التصرف.

١٢ - النفس من كتاب الشفا ص ٩٢.

١٣ -{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} سورة هود: ٢٤.

١٤ -{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} سورة الإسراء: ١، {وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} سورة غافر: ٢٠، {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} سورة غافر: ٥٦، {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} سورة الشورى: ١١.

١٥ - مقتبس من كتاب أصول المعرفة والمنهج العقلي للدكتور ايمن المصري المقصد الثاني أدوات المعرفة الفصل الأول ص ٥٣ .

١٦-انظر ارسطو كتاب النفس ص٦٥ وما بعدها.

١٧-الشيرازي ،الاسفار الاربعة،ج٨ ص١٥٩.

١٨-انظر ابن سينا مبحث عن القوى النفسانية رسالة مطبوعة ضمن "احوال النفس" تحقيق د. احمد فؤاد الاهوانيص١٦١.

١٩-انظر ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات،النفس،ص٥٨ وما بعدها.

٢٠ -أنضر أصول المعرفة والمنهج العقلي للشيخ الدكتور ايمن المصري ص٥٤ مع الزيادة والتصرف بالعبارة.

٢١ -منطق الشفاء:٦٩ ، ط مصر . وايضا انظر منطق الشفاء ج١ ص٤١٣ حيث قال "فنقول في جواب ذلك : إن التجربة ليست تفيد العلم لكثرة ما يشاهد على ذلك الحكم فقط، بل لاقتران قياس به قد ذكرناه."

٢٢ - .شرح المنظومة، لناظمها٩٠.

٢٣- برهان الشفاء، شرح الشيخ مصباح اليزدي: ص٢٧٢.

٢٤-برهان الشفاء ج١ ص٤١٣

٢٥-برهان الشفاءشرح الشيخ مصباح اليزدي: ص٢٧٧.

٢٦-الاطلاقات الثلاث الاولى غالبا ما يستعملها الجماهير و اصحاب علم الاخلاق في كتبهم تبعا لماورد في تعبير بعض الروايات فهي مليئة بالكثير من هذا القبيل فاليراجع ثمة.

٢٧ - تاريخ الفلسفة اليونانية تأليف يوسف كرم ص٥٠ الطبعة الخامسة ١٩٦٦ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة .

٢٨-انظر ابن سينا الشفاء ،الطبيعيات ،.....

٢٩ -جامع الأسرار ومنبع الأنوار للسيد حيدر الاملي ترجمة السيد جواد طبطبائي ص٤٧٢.

٣٠- المصدر السابق ص٥٣٤.

٣١-انظر الشيرازي مفاتيح الغيب ص١٢٦. وكذلك انظرما ذكره السيد العلامة الطبطبائي في رسالة الولاية منشورات قسم الدراسات الاسلامية ،١٣٦٠ هـ ص١٧.

٣٢ - نظرية المعرفة للشيخ جعفر السبحاني ص١٨٩.

٣٣ - انظر في ذلك الصحاح في اللغة ج٢ ص٢٧٠ حيث قال:" الوحْيُ: الكتابُ، وجمعه وُحِيٌّ. والوَحْيُ أيضاً: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأوْحَيْتُ، وهو أن تكلّمه بكلام تخفيه. قال العجاج:
وَحى لها القرارَ فاستَقَرّتِ.